

جبل بوكحيل في كتاب:

"رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة"

للسابط ثيودور بان، بين الوصف الطبوغرافي والتوظيف
الاستعماري.

Djebel Boukahil in the book:

*"Familiar Letters on Algeria: A Little Arab Kingdom"
by officer Théodore Pein, between topographical
description and colonial instrumentalization.*

نبيلة لرباس.

-المركز الجامعي مرسلي عبد الله؛ تيبازة(الجزائر).

- البريد الإلكتروني: larbes.nabila@cu-tipaza.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/19؛ تاريخ القبول: 2025/11/11؛ تاريخ النشر: 2025/12/15.

الملخص:

في كتابه "رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة"،
يقدم العسكري ثيودور بان جبل بوكحيل بوصفه أكثر من مجرد
معلم طبوغرافي واستراتيجي، بل "كعقدة جغرافية" تحمل أبعاداً
عسكرية وثورية، فهو حاجز يفصل بين المجال الحضري المستقر شمالاً
والمجال الصحراوي المنفتح جنوباً، يُدرج هذا الجبل ضمن رؤية
استعمارية ترى في الجغرافيا وسيلة للضبط والمراقبة. يعترف ثيودور بان
بصعوبة السيطرة على المجال الصحراوي والقبائل المتواجدة فيه، لكنه

يسلط الضوء على أهمية بوكحيل في الحملات الاستكشافية والعسكرية (مجال للمقاومة)، باعتباره بوابة نحو الجنوب غير الخاضع والمجهول (للاحتلال). ورغم ما يبدو من ملاحظات ميدانية دقيقة قدمها صاحب الكتاب، فإن وصفه لا يخلو من التوظيف الاستعماري، حيث تتحول الجغرافيا إلى وسيلة لفهم المجال بغرض السيطرة عليه، هكذا يتحول الجبل في خطاب ثيودور بان إلى نقطة تقاطع بين المعرفة الطوبوغرافية والرغبة في التوسع الاستعماري، مما يُظهر تداخل الوصف العلمي مع منطق الهيمنة وإخضاع القبائل.

الكلمات المفتاحية: جبل بوكحيل؛ ثيودور بان؛ رسائل ودية عن الجزائر؛ الجنوب الجزائري؛ الاحتلال الفرنسي.

Abstract:

In his work *Lettres familières sur l'Algérie*, the military officer Théodore Pein presents Djebel Boukahil as much more than a simple topographic and strategic landmark. He describes it as a "geographical knot" carrying both military and symbolic dimensions. This mountain forms a barrier separating the stable urban domain of the north from the open Saharan expanse to the south. It fits within a colonial vision in which geography becomes a tool for control and surveillance. Théodore Pein acknowledges the difficulty of dominating the Saharan space and the tribes who inhabit it, yet he emphasizes the importance of Boukahil in both exploratory and symbolic campaigns-as a gateway to an unsubdued and unknown South yet to be conquered. Although his narrative appears to be based on detailed field observations, his description is far from neutral: it is deeply marked by colonial instrumentalization. Thus, geography becomes a means of knowledge serving domination. Djebel Boukahil, in Pein's discourse, becomes a point of convergence between topographical knowledge and imperial ambition, revealing the

overlap between scientific observation and the logic of power and subjugation of local tribes.

Keywords: Djebel Boukahil; Théodore Pein; Familiar Letters on Algeria; the Algerian South; the French occupation.

مقدمة:

مع تقدّم المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ازدادت الحاجة إلى استكشاف مناطق الجنوب والتحكّم فيها، ليس فقط من الناحية العسكرية، بل كذلك من الناحية المعرفية، ومن بين العديد من الكتابات التي أُنتجت في تلك الفترة، يبرز كتاب "رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة" لثيودور بان، الذي نُشر سنة 1871، باعتباره شهادة مباشرة لضابط ميداني، قضى سنوات في جنوب الجزائر، وعاش بين القبائل وساهم في الحملات العسكرية التي استهدفت ضبط المجال الصحراوي. من خلال نظريته التي تجمع بين الفضول والسخرية والولاء الاستعماري، يقدم بان وثيقة تُظهر واقع الاستعمار في تلك الفترة، ومن خلال رسائله، يتحول الكاتب إلى أنثروبولوجي وجندي، يرسم ملامح جنوب الجزائر، حيث ينقل انطباعاته وملاحظاته خلال فترة تواجده في منطقة تقتر وما جاورها، يجمع المؤلف في رسائله بين الوصف الجغرافي والتأمل الاجتماعي والموقف الاستعماري.

في هذا السياق، يظهر جبل بوكحيل كأحد المواقع المحورية في هذا الخطاب، لا باعتباره عقبة طبيعية فحسب، بل باعتباره تحدياً جغرافياً وعسكرياً وسياسياً في آن واحد بين المستعمر والمستعمر، وقد خصّ الضابط الفرنسي تيودور بان بوكحيل بوصفٍ دقيق يجمع بين التحليل الطوبوغرافي والرؤية العسكرية الاستعمارية، وهذا ما يجعل

من هذا الجبل نموذجاً واضحاً يبرز علاقة المستعمر الفرنسي بالمجال الجغرافي والمجتمع المحلي، ومنه كيف قدّم ثيودور بان الجنوب الجزائري في كتابه رسائل ودية عن الجزائر؟ وما مكانة جبل بوكحيل في التجربة الميدانية لثيودور بان؟ وهل يعبر خطابه عن نظرة معرفية حيادية للطبيعة والقبائل، أم يُوظف ضمن رؤية استعمارية تهدف إلى السيطرة على المجال والمجتمع؟

أولاً: جبل بوكحيل في الكتابات الفرنسية:

يحظى الجنوب الصحراوي الجزائري وجبل بوكحيل بمكانة خاصة في الذاكرة التاريخية الكولونيالية، حيث شكّل هذا الأخير منذ الاحتلال الفرنسي مجالاً غامضاً ومثيراً للفضول لدى العسكريين والمستكشفين الأوروبيين، ومن الكتابات نذكر:

1 - "استكشاف جبل بوكحيل" لأنطوان أرنو A. Arnaud :

في مؤلفه استكشاف جبل بوكحيل *Exploration du Djebel Boukahil*، الذي نُشر في المجلة الأفريقية *Revue Africaine* ما بين سنوات 1862 و1863، قدّم جبل بوكحيل في عدة جوانب جغرافية و إثنو -تاريخية وأثرية، يُعدّ هذا العمل أول وثيقة ميدانية معمّقة تُسجّل تضاريس جبل بوكحيل وبيئته طبوغرافياً. لقد وظفت الدولة الفرنسية هذا العمل ضمن استراتيجيات الهيمنة والتحكم الميداني في الجنوب الجزائري، ورغم طابعه العلمي، لا يخلو من غايات استعمارية، تجسّدت في الخرائط و تحديد مواقع القبائل وتقييم الموارد (ARNAUD, 1862, p. 253)

2 - قنفاذ البحر الحفرية في الجزائر: وصف الأنواع التي جمعت سابقاً في هذا البلد وتأملات حول موضعها الطبقي (الجيولوجي):

يقدم كتاب قنافذ البحر الحفرية في الجزائر: وصف الأنواع التي جمعت سابقا في هذا البلد و تأملات حول موضعها الطبقي (الجيولوجي) *Échinides fossiles de l'Algérie : description des espèces déjà recueillies dans ce pays et considérations sur leur position stratigraphique* لكويتو و بيرون و غوتيي Cotteau, Péron & Gauthier تحليلاً عميقاً لتكوين جبل بوكحيل، تمتاز هذه الدراسة بالدقة العلمية والجغرافية، مما جعلها مرجعاً مهماً لفهم البنية الجيولوجية والجغرافية الاستراتيجية لجبل بوكحيل ضمن السياق الاستعماري الفرنسي (Cotteau, Péron, & Gauthier, 1883, p. 73).

3 - وصف الرخويات الحفرية من الطبقات الطباشيرية في المنطقة الجنوبية من الهضاب العليا في تونس:

أبرز بيرون ألفونس Alphonse Péron في دراساته، الجانب الطبيعي-الجغرافي لجبل بوكحيل، وهو يعتبر من المصادر التي تظهر إشارات مهمة تتعلق بجبل بوكحيل في الصفحات 64 و 124، يركز على الجوانب الجيولوجية الطبوغرافية: التركيب الطبقي، الصدوع، والتوزيع العمراني للصخور. يضع هذا الكتاب جبل بوكحيل ضمن نطاق ذو أهمية جيولوجية و جيومائية في المنطقة، وقد استفاد ثيودور بان من هذه الخلفية في تحليله للطبيعة الصعبة التي شكلت تحدياً أثناء الحملة الفرنسية (Péron, 1890., pp. 64-124).

4 - الجغرافيا الابتدائية للجزائر لاستخدام التعليم الابتدائي (1874):

يُدرج الكاتب ليفاسور Levasseur جبل بوكحيل ضمن سلسلة جبال الأطلس الكبير كجزء من تشكيل طوبوغرافي يمتد شرقي الجزائر، ويشكل حاجزاً طبيعياً يقيّم كحدّ فاصل بين الهضاب

الساحلية والهضاب الداخلية، يُعد نقطة عبور طبيعية هامة لفصل المناخات والبيئات والطرق الاستراتيجية فضلاً على أن هذه السلسلة الجبلية تحدّد تغير المناخ من البحر إلى الداخل، مما يؤثر على التغطية النباتية ونوعية هطول الأمطار، وهو ما يرتبط مباشرة بفكرة تصنيف الجنوب كم منطقة شحيحة الأمطار (Levasseur, 1874, pp. 19-26).

ثانياً: ثيودور بان (1810-1892) ومهامه في الجزائر:

ولد لويس أوغست ثيودور بان Louis Auguste Théodore Pein يوم 12 ماي 1810 Chalons-Sur-Marne، ضابط عسكري في جيش إفريقيا Armée d'Afrique، كان محباً للمغامرات، بعد انتهاء دراسته، بدأ مسيرته المهنية في البحرية العسكرية. أمضى ما يقرب من عام في الخدمة العسكرية ثم شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر (Frémont, 1892, p. 62)، انضم سنة 1832 إلى المشاة الخفيفة رقم 19 ثم ترقى إلى رتبة عريف وفي سنة 1833 أصبح رقيب البحرية، ليصبح ملازماً سنة 1842 وفي رتبة نقيب سنة 1849، تمت ترقيته إلى القائد الأعلى لدائرة بوسعادة سنة 1850 وإلى غاية سنة 1859 وهو برتبة عقيد عيّن كقائد للقسم الفرعي بباتنة، طلب الاستقالة والتي منحت له يوم 09 ماي 1863، لكنه غادر الجيش نهائياً سنة 1871، توفي في 15 جانفي سنة 1892 (Fontaine, 1952, pp. 32-33).

اشتهر بمساهماته في الإدارة الاستعمارية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، إضافة إلى مهامه العسكرية الهادفة إلى تثبيت الوجود الاستعماري خاصة في المناطق الصحراوية النائية مثل توقرت، كان أيضاً مراقباً إثنوغرافياً وكاتباً عن المجتمعات المحلية، يهدف إلى فهم

السكان الجزائريين ومعرفة تنظيمهم الاجتماعي وعاداتهم ومعيشتهم. عمل بالمكاتب العربية في سطيف وبوسعادة وباتنة...، أين قدم "خدمات بارزة للإدارة الفرنسية" طيلة 18 سنة، وقد تمكن بسبب معرفته للغة العربية واللهجات المحلية من فهم السكان بشكل أحسن وأفضل (Frémont, 1892, p. 62).

ارتكب بان عدة مجازر ضد السكان الأبرياء، يروي في كتابه بشكل غير مباشر وقائع حملات عسكرية عنيفة ضد القبائل المقاومة، مستخدماً لغة استعمارية غير مباشرة تصف الأعمال الإجرامية "بالتأديب" أو "الاستكشاف" و"التمدين"، لكنها في الحقيقة كانت عمليات إبادة منظمة و انتهاكات صارخة بحق المدنيين، فمثلاً في إحدى الرسائل، يذكر بان هجوم على أولاد سعد (Ouled Saâd) (Pein, 1871, pp. 287-289)، ويذكر فيها تنفيذ غارات (Razzias) ومدهامات ليلية ضد الدوّار ومصادرة الممتلكات والمخيمات والاستيلاء على المئات من الأغنام والإبل والبغال والفرسان بالقوة والاحتفاظ بها لأنفسهم، وكذا حرق الخيام والقتل، وتفريق ومطاردة العائلات (Pein, 1871, pp. 355-357)، واقتحام تجمعات سكنية بدوية وتنفيذ سياسة التهريب العسكري وتخويف السكان وفرض حضورهم وإظهار العين المفتوحة للقبائل" - حسب تعبير بان ثيودور - (Pein, 1871، ص: 369). تُصنّف هذه الممارسات ضمن العنف الجماعي ضد المدنيين الأبرياء، نفس المصير حدث مع قبائل أخرى مثل أولاد نايل وأولاد طبعة، لأنها كانت تُشكّل مراكز مقاومة حقيقية ضد التوغّل الفرنسي في صحراء الجزائر.

ساهم ثيودور بان في إعادة تنظيم المجال الحضري لمدينة بوسعادة مباشرة بعد غزوها العسكري عام 1849، فقد فرض منطقاً عمرانياً على "الطراز الفرنسي"، أي وضع أسس مدينة استعمارية منفصلة عن التنظيم القبلي والصحراوي السابق وذلك ببناء ثكنة عسكرية ومكتب عربي ومباني إدارية دائمة، لمراقبة السكان المحليين (Fontaine, 1952, p. 66)، كما قام بتوسيع الشوارع وإنشاء ساحة مركزية تحمل اسمه "ساحة الكولونيل بان"، وهي مركزاً اقتصادياً تجارياً ومدنياً.

عمل بان على تسوية مجرى وادي بو سعادة، مما ساعد على التحكم بشكل أفضل في الفيضانات وتطوير المناطق المحيطة به لاستغلالها في الزراعة، كما عمل على تطوير أنظمة ريّ حديثة لدعم زراعة الواحات (نخيل تمر، زراعة الخضر)، بالإضافة إلى الزراعة التقليدية التي كانت سائدة، قام بدعم مشاريع الري وتنظيم السقي في الواحات، مما مكّن من تطوير زراعات منتظمة ودعم الاستيطان في الجزائر. أطلق مشروع بيئي يتمثل في غرس الأشجار حول المدينة، ولا سيما أشجار الحور *Peupleraie*، لتوفير الظل والحد من التعرية، وخلق مناخ محلي معتدل، هذا الإجراء، يرمز إلى اهتمامه بتخطيط بيئي حضري وبالصحة العامة الاستعمارية (التقليل من الغبار، وتثبيت التربة ومحاربة التصحر) (Fontaine, 1952, p. 64).

ثالثاً: كتاب "رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة":

ألف بان ثيودور "رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة" «*Lettres familières sur l'Algérie: un petit royaume arabe*» سنة

1871، كما ساهم في التعريف بثقافات الصحراء من خلال مقالات متعددة نُشرت في المجالات الاستعمارية والعسكرية. يُشكل الكتاب شهادة حية للضابط العسكري خلال إقامته في الجنوب الجزائري، لا سيما في منطقة تقرت، فهو يصف بالتفصيل المناظر الطبيعية الصحراوية وحياة القبائل وعاداتهم للجمهور الفرنسي، يجمع بين الملاحظات الاجتماعية، والوصف الجغرافي، وتأملات حول الاستعمار بأسلوب بسيط وواضح يُعدّ هذا الكتاب في الوقت نفسه وثيقة إثنوغرافية وشهادة عسكرية ويوميّات سفر، يقدم نظرة نادرة على تصوّر الفرنسيين للمناطق الصحراوية في تلك الحقبة.

يحمل عنوان كتاب ثيودور بان "رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة" دلالات متعددة، تشير كلمة "رسائل" إلى أن الكاتب اختار الأسلوب الرسائي، وهو أسلوب أدبي شائع في القرن التاسع عشر (أدب الرحلات)، يتوجّه الكاتب إلى القارئ كما لو كان يخاطب صديقاً، مما يُضفي على النص طابعاً حميمياً ويجعله ممتعاً وسلساً، أما كلمة "ودية" تُشير إلى البعد عن الأمور الرسمية أو العلمية، أي سرد وصفي بأسلوب يشبه الحديث اليومي حول المجتمع الجزائري.

ورغم أن نبرة الكتاب ودية، إلا أن هذا النوع من النصوص يُساهم في إنتاج خطاب استعماري أوسع، يتمثل في بناء صورة ذهنية عن الجزائر للقارئ الفرنسي. عندما يصف بان الجزائر بأنها "مملكة عربية صغيرة"، فإنه يُقدّم رؤية استشراقية، قد تُستخدم لاحقاً لتبرير الوجود الفرنسي بحجة "التمدين" و"الهيمنة"، يُجسّد عنوان رسائل ودية

عن الجزائر " رغبة ثيودور بان في نقل تجربته الاستعمارية بأسلوب سهل وقريب من القارئ، مع بناء قصة عن الجزائر تُلائم الذوق الفرنسي في القرن التاسع عشر وتخدم الإطار الاستعماري الذي كُتب فيه الكتاب. رابعا: مضمون الكتاب:

جاء كتاب "رسائل ودية عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة" لثيودور بان على شكل مراسلات شخصية، يروي فيه، وهو ضابط سابق في الجيش الفرنسي، ذكرياته ومشاهداته وتأملاته أثناء إقامته في الجزائر، يتألف الكتاب من 86 رسالة أرسلها إلى عائلته وأصدقائه، تتمحور في مواضيع مختلفة حول الجنوب الصحراوي. ويُعد الكتاب من بين النصوص الأدبية -العسكرية التي وثقت للعمل الاستعماري في الجنوب الجزائري خلال القرن 19، خاصة في وادي ريغ، توقرت، بسكرة، بوسعادة، جبل بوكحيل، مناطق الأطلس الصحراوي... جاء الكتاب على شكل رسائل متتالية، تُشكل شهادة شخصية غنية بالملاحظات الإثنوغرافية والتأملات السياسية، تجمع بين السرد الأدبي والتجربة الميدانية، والنقد غير المباشر للسياسة الاستعمارية، وفيما يلي أهم المواضيع التي تطرق إليها ثيودور في كتابه:

1 -تعريف بتقوت وجهل الفرنسيين بواقع الجزائر:

ينطلق بان ثيودور من تصوير واقع الجنوب، ويستهل كتابه بتقديم تعريف بمدينة توقرت، يصفها بأنها مدينة رائعة الجمال، محاطة بواحة من أشجار النخيل الكثيفة، وهي منطقة معزولة بعيدة عن السواحل، لا يعرفها الفرنسيون إلا القليل منهم، على الرغم من

ثرائها الثقافي والتاريخي، يستغرب المؤلف من قلة عدد الفرنسيين الذين يعرفون هذه "المملكة العربية الصغيرة"، كما يسميها، ويُعرب عن أسفه لاستهانة "المتروبول" بهذه المناطق، رغم أنها خاضعة للإدارة الاستعمارية حسب رأيه (Pein, 1871, p. 13)، لهذا السبب يصرح بان في بداية كتابه بأن هدفه الأساسي يتمثل في تقريب واقع الجنوب الجزائري من القارئ الأوروبي، الذي يجهل طبيعة هذا العالم ومجتمعه، عن طريق رسائل شخصية تنقل تفاصيل الحياة اليومية وتعكس فكرة شائعة في الأدبيات الاستعمارية الفرنسية. كما يُخصّص جزءاً من وصفه لشرح نظرة السكان المحليين للفرنسيين، من خلال كلمة "رومي" Roumi، الذي يُحمّله دلالات تتجاوز مجرد "الأجنبي" إلى معنى "المختلف ثقافياً والبعيد عن البيئة والغريب عن التقاليد والمجال الصحراوي" (Pein, 1871, p. 15).

في مجموع هذه الرسائل، يصف بان مدينة تقرت، مقدّمًا نظرة معمّقة عن الحياة اليومية في هذه المنطقة الصحراوية من حيث سكانها ونمط معيشتهم، يتحدث عن الأسواق المحلية والمساكن التقليدية وعادات القبائل وعن الوضع الاجتماعي ونظام "الخماس" (عامل فلاح يحصل على خمس المحصول) (Pein, 1871, p. 15)، كما لا يغفل الكاتب عن وصف البيئة الطبيعية القاسية التي تحتضن هذه الحياة، بمناخ الجنوب يتميز بحرارة شديدة (Pein, 1871, p. 286).

في مقابل ذلك، يقدّم بان نقداً ساخراً للسلطة المحلية، كاشفاً عن ترف السلاطين، تعدد نسائهم، واعتمادهم على العبيد، وتورطهم في الصراعات العائلية، كما يتطرق في كتابه إلى مقاومة الشريف

محمد بن عبد الله، ويصفه كمصدر خطر حقيقي على الوجود الفرنسي في جنوب الجزائر ويعتبره كقائد سياسي وديني، يرى أن خطورة الشريف في قدرته على توحيد القبائل المختلفة ضد الاحتلال الفرنسي، هذا ويعرض بان تفاصيل الغارات الفرنسية *Razzias* على قبائل أولاد سعد وأولاد خالد (Pein, 1871, p. 277)، ويتحدث عن العمليات العسكرية في جبل بوكحيل، وادي الجدي، وبوسعادة، ومواضيع أخرى مثل الطبيعة والمناخ والمرض... (Pein, 1871, pp. 19-20) ومنه فهو ينسج سرداً يعكس من جهة إعجابه بالحياة الصحراوية، ومن جهة أخرى قلقه من "توسع التمرد"، يقصد بذلك مقاومة القبائل.

2 - الطبوغرافيا والمناظر الطبيعية في جنوب الجزائر:

يواصل بان رحلته الاستكشافية من خلال وصف مناظر الجنوب الجزائري الجميلة (الواحات، غابات النخيل، الجبال، الوديان) مقدماً رؤية مفصلة لهذه البيئات الطبيعية ومسلاً الضوء على تنوع تضاريس المنطقة، يتطرق إلى مجموعة من المدن والأماكن مثل تقرت، بوسعادة، الأغواط، الوادي، ورقلة، بجاية، قسنطينة، أولاد نائل، أولاد جلال، أولاد سعد... مبرزاً خصائصها الطبيعية والجغرافية والسكانية. فمثلاً يصف مدينة بوسعادة "بأنها مدينة يسكنها 4500 نسمة، وتضم 600 منزلاً، و400 إلى 500 حديقة مزروعة بعدد كبير من الأشجار المثمرة، و10.000 نخلة... تم تحويل بوسعادة إلى مقر دائرة في بداية سنة 1850، وهي تابعة لتقسيم سطيف الإداري، الذي يبعد عنها بـ 400 كيلومتر" (Pein, 1871, pp. 235-236).

3 - الحيوانات والنباتات في الصحراء:

يقدم ثيودور بان وصفاً أولياً لانطباعه عن الصحراء، مركزاً على عناصرها الطبيعية، خصوصاً النباتات والمياه، يصف دخول الصحراء كأنه دخول إلى عالم جديد تماماً، حيث تتغير الطبيعة بشكل مفاجئ، تُشكل الرسالة تأملاً في البيئة الصحراوية الجزائرية كما اختبرها ثيودور بان لأول مرة، حيث يُبرز التناقض الحاد بين طبيعة الشمال الخضراء والصحراء القاحلة (Pein, 1871, pp. 248-254). ويقدم بان وصفاً دقيقاً للأنواع الحيوانية والنباتية في الصحراء، ويولي اهتماماً خاصاً للنباتات التي تفيد السكان المحليين، مثل نخيل التمر الذي يشكل مصدراً هاماً للغذاء والاقتصاد، كما يصف الحيوانات الداجنة التي تتكيف بشكل جيد مع ظروف البيئة الصحراوية القاسية، والتي يعتمد عليها السكان في حياتهم اليومية، مثل الإبل والماعز، الأحصنة، الخرفان، البغل العربي (Pein, 1871, p. 265) ويذكر ندرة النباتات، وغلبة النباتات الصحراوية مثل نبات الأشواك والحلفاء (Pein, 1871, pp. 409-410).

4 - القبائل وتنظيمها:

يتناول بان الهيكل الاجتماعي والسياسي للقبائل في الجنوب الجزائري، ويصف العلاقات المعقدة التي تربط بين مختلف القبائل، من تحالفات وخصومات، إلى جانب أنظمة الحكم التقليدية المعتمدة عليها. ويقدم بان بورتريهات إثنوغرافية لقبائل الصحراء التي التقى بها، مثل أولاد نايل وأولاد جلال، مبرزاً خصوصياتها الثقافية، ونمط معيشتها وتنظيمها الاجتماعي وتقاليدها (Pein, 1871, pp. 255-264).

وحسب ما ورد في كتاب ثيودور بان، فإن القبائل التي يُصنّفها ضمن ما يُعرف بالقبائل "المتمرّدة" أو المعادية للإدارة الفرنسية وعدم خضوعها للسلطة و تعاونها مع الزعيم الشريف محمد بن عبد الله أو معارضين آخرين، هي: أولاد سعد Ouled Saad، تعتبر من أكثر القبائل التي ركّز عليها، تحصّنوا في جبل بوكحيل، ونُفذت ضدهم غارات فرنسية، و قبيلة أولاد نايل Ouled Nail، يسكنون منطقة الجلفة وبوسعادة، و أولاد خالد Ouled Khaled، وأولاد عطية Ouled Athia الذين تعرّضوا لغارة عسكرية بقيادة بان نفسه، أولاد طوبة Ouled Touba لجأوا إلى الجبال (مثل بوكحيل) للفرار من المراقبة. يذكر بان الشرفاء أتباع محمد بن عبد الله لا ينتمون لقبيلة معينة، لكنهم يشكلون قاعدة شعبية معارضة للإدارة الفرنسية، وحسب الكاتب القبائل الأقرب إلى الجبال (مثل بوكحيل) كانت أكثر تمرّساً بالمقاومة والمراوغة.

5 - الحياة الاقتصادية والتجارية:

يتناول ثيودور بان في رسائله مظاهر الاقتصاد المحلي في الجنوب الجزائري، مركّزاً على الأنشطة الاقتصادية الأساسية مثل الزراعة وتربية المواشي والحرف اليدوية والتجارة بالقوافل، ويُظهر اهتماماً خاصاً بنظام التبادلات بين المدن من جهة، والقبائل الرحل من جهة أخرى، مبرزاً الدور الحيوي الذي تلعبه الأسواق المحلية كفضاءات لا تقتصر على التبادل التجاري فحسب، بل تشكّل مركزاً للحياة الاجتماعية ويُعقد فيها اللقاءات بين مختلف الجماعات سواء كانت عربية أو بربرية أو حتى أوروبية، ومكان لفك الخصومات بين الناس (Pein, 1871, p. 70)

يُفصّل بان في الطرائق الزراعية الملائمة للظروف المناخية الجافة، مشدداً على أهمية تقنيات إدارة المياه، مثل حفر الآبار واستغلال منابع الري، ومن المحاصيل الزراعية، يذكر الحبوب وبعض أصناف الخضروات والتمر، وحسبه النخيل هو المحصول الأساسي في وادي ريغ، وهو يُمثل العمود الفقري للاقتصاد المحلي، والمصدر الأساسي للدخل في الواحات الصحراوية، ومعظم السكان ليسوا ملاكاً بل مجرد خماسة يعملون لدى مُلاك، يُباع التمر أو يُستبدل بمؤن أخرى (قمح، زيت) في الأسواق. يُشير بان إلى أن واحات النخيل تعتمد على الري عن طريق الينابيع الارتوازية، ويتطلب الغرس عناية دقيقة مع خبرة تقنية متوارثة، وخاصة في أماكن مثل توقرت وتماسين (Pein, 1871, pp. 54-56).

6 -تقنيات الري والآبار الارتوازية:

يُبرز الكاتب دهشته أمام تقنيات الري التقليدية في الجنوب الجزائري خاصة في منطقة وادي ريغ، تمثل كفاءة بيئية محلية مدهشة، تمكن السكان من استخراج المياه الجوفية من خلال الآبار الارتوازية *Puits Artésiens* (Pein, 1871, p. 49)، ويُنسب على قدرة السكان على التأقلم مع بيئة قاسية، رغم فقرهم وتردي ظروفهم الصحية. كما أشار إلى التعايش بين العادات المحلية والتأثيرات الخارجية التي بدأت تتسرب بفعل الحضور الاستعماري، دون أن تلغي الطابع الأصيل للحياة اليومية في المدينة، من جهة أخرى يُهدد الكاتب لفكرة أن فرنسا قادرة على "تحسين" هذه القدرات لتحقيق السيطرة والتنمية الاستعمارية في إطار ما يسمى "بالمهمة الحضارية" (Pein, 1871, p. 273).

7 -العلاقة بين السكان المحليين والفرنسيين:

يتناول ثيودور بان في رسائله الدور الذي لعبته الإدارة الاستعمارية الفرنسية في تنظيم المجال الصحراوي، مركزاً على الهياكل الإدارية التي أنشئت لتسيير المناطق النائية، وعلى رأسها المكاتب العربية *Bureaux Arabes*، فهو يُبرز العلاقة المعقدة بين السلطات الفرنسية والقيادات المحلية، موضعاً التوتر القائم بين مساعي فرض الهيمنة ومقاومة السكان الأصليين. كما يشير إلى التحديات الإدارية التي واجهتها فرنسا، من حيث ضعف التواصل، وسوء فهم العقلية القبلية، وصعوبة إخضاعها للسلطة الاستعمارية في تحليله، لا يتردد بان في انتقاد كفاءة الإدارة الاستعمارية، بسبب عدم فهمها للسكان المحليين، مقترحاً جملة من الإجراءات التي تهدف إلى تحسين الاندماج التدريجي للسكان في النظام الكولونيالي (Pein, 1871, pp. 244-247).

يتوسع بان في وصف التحديات العسكرية والأمنية، مركزاً على الصعوبات التي واجهها الجيش الفرنسي في فرض النظام في هذه المنطقة مثل الثورات القبلية والكمائن المفاجئة والتمدد الجغرافي الواسع للصحراء الذي صعب السيطرة عليه، كما يستعرض في هذا السياق الاستراتيجيات العسكرية المتبعة من طرف السلطات الاستعمارية "لضمان الأمن"، منها التحركات السريعة وتنظيم الغارات والاستكشاف المتواصل للجنوب (Pein, 1871, pp. 265-273).

خامساً: جبل بوكحيل في رسائل بان ثيودور:

1 -جبل بوكحيل عقدة طوبوغرافية بين الاستقرار والمقاومة:

وصف بان ثيودور جبل بوكحيل *Djebel Boukahil* وصفاً جغرافياً دقيقاً، باعتباره "عقدة جغرافية" ضمن سلسلة جبلية، تمتد من الشرق إلى الغرب، تقع على بُعد حوالي عشرين كيلومتراً جنوب مدينة بوسعادة. يمثل هذا الجبل حداً طبيعياً بين الهضاب العليا التي تسكنها قبائل أولاد نايل، والمجال الصحراوي المفتوح في الجنوب، ورغم أن هذه السلسلة الجبلية ضعيفة الارتفاع وقليلة السمك، إلا أن موقعها الاستراتيجي يجعل منها نقطة عبور حاسمة نحو "اللانهاية الصحراوية"، حسب وصف بان (Pein, 1871, p. 248). ومن المنظور العسكري، يُجسّد بوكحيل بوابةً إلى الجنوب غير المنضبط، حيث تبدأ الأراضي التي يصعب على الجيش الفرنسي السيطرة عليها، وتشير الانحدارات الجنوبية للجبل إلى حوض وادي الجدي، الذي يُعرف في الأغواط باسم وادي مزي، ويتجه نحو الزبان وغابات بسكرة، ويصف بان هذا الإقليم بأنه قاحل وحجري وشديد الحرارة وقليل الماء، أرضه مغطاة بحصى ما جعله مؤمناً للمشاة (Pein, 1871, p. 249).

يتضح من خلال هذا أن ثيودور بان يقدم وصفاً جغرافياً دقيقاً لجبل بوكحيل، موضّحاً موقعه وشكله ووظيفته، تكمن أهميته في أنه يربط أو يفصل بين منطقتين متباينتين شمالاً وجنوباً نحو الصحراء الشاسعة، وهو يؤدي وظيفة استراتيجية، لأنه يشكل نقطة عبور بين المجال الزراعي المستقر والمجال الصحراوي المتقلب، وهنا يستخدم بان تعبيراً رمزياً وهو نحو اللانهاية الصحراوية، في إشارة إلى الصحراء كمجال لا حدود له، مجهول وملئ بالمخاطر يرى بان في جبل بوكحيل أكثر من مجرد تضاريس، بل يعتبره بوابة إلى الجنوب الذي

يصعب على الجيش الفرنسي السيطرة عليه، فهو يمثل الحد الفاصل بين السيطرة والخروج عن السيطرة. هذا الجبل من الناحية العسكرية يُنذر بالمخاطر كما يصفه بان فهو أرض صخرية قاسية ومليئة بحصى وحرارة شديدة وماء قليل مما يُتعب الجنود، فهو نقطة طوبوغرافية حاسمة في الحدود بين عالمين عالم مستقر إدارياً نسبياً في الشمال، وعالم نافذ على الفوضى والمقاومة في الجنوب، حسب رأيه.

2 - وادي الجدي جنوب بوكحيل: محور استراتيجي في المخطط العسكري الفرنسي:

يصف بان ثيودور منطقة بوكحيل وما جاورها، تحديداً حوض وادي الجدي *l'oued Djedi* جنوب بوكحيل - بالنقطة المحورية ذات الأهمية الكبرى، فهي حسب رأيه منطقة استراتيجية تستدعي تدخلاً عسكرياً واستكشافياً سريعاً ومدرّساً، يتم هذا التوسع بواسطة قوة خفيفة وسريعة حسب تعبيره، بهدف الاستطلاع وفرض الهيبة ومراقبة الأوضاع المحلية، ورغم اعترافه بأن الوسائل العسكرية المتوفرة لديه محدودة وضعيفة، فإن هدفه هو السيطرة الرمزية والتأثير النفسي والاستكشاف الميداني، دون الدخول في معارك كبرى (Pein, 1871, p. 265). ويؤكد أن استكشاف منطقة وادي الجدي أمراً ضرورياً، فالسيطرة المعنوية والميدانية عليها، تسبق التهديد الفعلي أو إمكانية قيام القبائل لمقاومة شعبية ضدهم.

يوصل بان حديثه حول المنهج المتبع في "الاستكشاف" قائلاً: «اعتمد على إرسال قوات صغيرة جداً لكنها شديدة الحركة والنشاط، مهمتها التحرك المتكرر في جنوب بوكحيل، أي فرض

الحضور المستمر». وصف بان الفرق العسكرية بالصغيرة وأنها حية مثل السمكة، أي صعبة الإمساك (مثل السمك في خفته وسرعته)، هدفها ليس فقط استكشاف منطقة وادي الجدي، بل إظهار الحضور واليقظة للخصم ومراقبة القبائل المحلية قبل اندلاع "التمردات" الكبيرة، أما القوة العسكرية التي أمر بإرسالها، وصفها بالحجم الصغير قائلاً ما يلي: "إنها كتيبة رمزية، صغيرة جداً ولكنها كافية للاستكشاف... كتيبة من الأطفال"، للإشارة إلى صغر حجمها (Pein, 1871, p. 265)

3 - جبل بوكحيل كفاصل جغرافي بين عالمين متناقضين:

يصف بان ثيودور منطقة بوكحيل بأنها حاجزاً طبيعياً، يفصل بين بوسعادة ومنطقة عين الريش (قاعدة الإمداد)، التي اتخذها قاعدة خلفية لرحلاته الاستكشافية، أشار إلى الجبل كعلامة حدودية تفصل عالمين عالم القيادة شمالاً، وعالم الحرية والحياة اليومية البسيطة جنوباً، ومنه فقد أضفى على الجهة الواقعة وراء بوكحيل طابعاً من الانفتاح والحرية، حيث كانت الرحلات العسكرية تأخذ طابعاً استكشافياً وترفيهياً في آن واحد. في هذا الوصف، يظهر بوكحيل كخط فاصل بين التوتر الحضري والانفتاح الصحراوي، وبين الانضباط العسكري والحياة البسيطة اليومية (Pein, 1871, p. 247)، يصف بان المنطقة الواقعة خلف بوكحيل بمجرد عبور الجبل بأنها كانت مريحة وهادئة، قائلاً: "كنا أحراراً ونستشق الهواء براحة"، وكانت الحياة اليومية مسرحاً لرحلات استكشافية ممتعة وصيد ورسم خرائط والراحة النفسية (Pein, 1871, p. 275).

4 - بوكحيل في الاستراتيجية العسكرية لثيودور: التخطيط والتنفيذ:

يصف بان تيودور منطقة بوكحيل هدفاً عسكرياً استراتيجياً يتم الاقتراب منه بالتخطيط والتدرج، مستخدماً المثل الفرنسي "عدم وضع العرب قبل الثور" (Pein, 1871, p. 283)، في إشارة إلى ضرورة احترام تسلسل التحضير والتحرك قبل الوصول إلى وجهة مثل بوكحيل، لا يصف الجبل وصفاً طبوغرافياً أو جمالياً، بل يقدمه ضمن سياق تحركات عسكرية منظمة، من خلال مقارنة ميدانية وتنظيمية لدراسة منطقة بوكحيل جغرافياً وعسكرياً، ثم توزيع القوات الفرنسية على حدود القبائل المتتابعة في الطريق، ويتم التقدم خطوة بخطوة نحو بوكحيل والإحاطة به (Pein, 1871, p. 283)، ويؤكد على ضرورة الاستعداد لمواجهة غير متوقعة عند الاقتراب من المنطقة لأن ذلك قد يكون محفوفاً بالمخاطر (Pein, 1871, p. 284).

5- جبل بوكحيل موقع استراتيجي في مسار تحركات القبائل:

وصف ثيودور بان جبل بوكحيل كموقع استراتيجي في مسار تحرك القبائل الصحراوية، التي تحاول الاختباء خلفه أو استخدامه كمأوى لاستدراج القوات الفرنسية نحوه، فهو نقطة محورية في التخطيط العسكري يشكل جزءاً من طريق المقاومة الجزائرية، يجب مراقبته لضبط تحركات القبائل فيه (Pein, 1871, p. 288). كما تحتوي المنطقة على ممرات طبيعية جبلية ضيقة وصعبة مثل "ممر نوغ" *Défilé du Noug*، تُعد نقاطاً حاسمة للتحكم في مقاومة القبائل التي تمر عبر هذه الممرات، يشير الكاتب خاصة إلى قبيلة أولاد سعد، والذي أمر بوضع قوات عسكرية في هذا الموقع لإيقاف تقدمهم والسيطرة على مواردهم (Pein, 1871, p. 290).

6 - جبل بوكحيل معقل المقاومة القبلية الجزائرية:

يتحدث بان ثيودور عن منطقة بوكحيل بطريقة توضح أهميتها الاستراتيجية والجغرافية خلال تحركاته العسكرية، ويصفها بأنها معقل لحركة القبائل لا بدا من مراقبتها، كما يعتبرها كمكان لإشارات تحذيرية، فيصف كيف أن "قمم بوكحيل" أضاءت بالنيران كإشارات تحذيرية أرسلتها قوات أولاد نايل لتبنيه إخوتهم بقدم العدو، مما يدل على أهمية الموقع في نظام الإنذار القبلي (Pein, 1871, p. 291)، و هو دليلاً مباشراً على أن الجبل لم يكن مجرد تضاريس صامتة، بل كان جزءاً من نظام تحذيري قبلي ذكي، وهذا يعزز مكانة بوكحيل كفضاء مقاوم، حي، ومتفاعل مع التهديدات، ويُبرز قدرة القبائل على ابتكار وسائل دفاعية جماعية رغم بساطة الإمكانيات.

يصف الكاتب بوكحيل كمطقة جبلية استراتيجية تم احتلالها بعد معركة عنيفة مع القبائل "المتردة" التي حاولت الفرار من هناك بسرعة، مشيراً إلى قبائل أولاد سعد (Pein, 1871, p. 293). كما يؤكد أن هذه الأرض كانت مسرحاً لعمليات ومناورات شريف محمد بن عبد الله، ما يعني أن المنطقة تشهد صراعات وتحديات مستمرة (Pein, 1871, p. 309).

يصور المؤلف جبل بوكحيل كموقع جغرافي معقد، يتميز بتضاريس صعبة وغير مستقرة، ويوفر ملاذاً طبيعياً لعدد من القبائل لديها معرفة جيدة بهذه المنطقة وتقاوم السلطة الاستعمارية، مما يجعل السيطرة عليها صعب للغاية، فمثلاً يذكر في مجرى وادي جرف Oued

Djorf (ينحدر من آخر سفوح بوكحيل) قبيلة أولاد ساسي *Ouled Sassy* تعرف جيداً تفاصيل هذا الوادي، بما فيه من كهوف وتجاويف متعددة توفر مأوى آمناً لهم و التي لا يعرفها إلا أهلها، حيث يصعب على القوات العسكرية الفرنسية الوصول إليهم لصعوبة التضاريس (Pein, 1871, p. 350). يتحدث عن مواجهات قوية بين الجيش الفرنسي وقبيلة أولاد ساسي، ويصف كيف تكبدت قواته خسائر بشرية وعدد من الجرحى خلال هذه المعركة (Pein, 1871, p. 355). كما يصفها بأنها منطقة جبلية صعبة، تحتوي على العديد من الوديان التي يمكن للقبائل المحلية، مثل أولاد طوبة *Ouled Toba*، أن تختبئ وتتفرق فيها بسهولة، مما يصعب مهمة القوات الفرنسية من تنفيذ تفتيش شامل وفعال (Pein, 1871, p. 382). يشير بان ثيودور إلى أن بوكحيل كمكان صعب ومعقد تكتيكياً، يستخدمه السكان المحليون للاختباء والتهرب من القوات، لكنه في الوقت نفسه يعتبره نقطة ضغط استراتيجية بسبب قلة الموارد الطبيعية مثل نقص الماء التي قد تجبر السكان على الاستسلام.

ويصف بان ثيودور منطقة بوكحيل بأنها مركز مهم واستراتيجي تجمع فيه عدة ممرات جبلية تؤدي إلى الصحراء، تُستخدم من قبل القبائل للهروب أو التحرك، يبرز أيضاً كيف أن بوكحيل تعتبر نقطة جذب للقبائل من مناطق مختلفة (من الشرق والغرب) الذين يتجمعون في جنوب الدائرة العسكرية لبان ثيودور، نظراً لأهميتها كممر ومأوى. فقد صوّر المنطقة كمساحة تمرد لكنها في نفس الوقت مجال للعمل العسكري الفرنسي للقضاء وقمع المقاومة. يتضح

أن بان ثيودور يقدم في نصوصه وصفاً دقيقاً واستراتيجياً لمنطقة بوكحيل، التي تتسم بتضاريس جبلية معقدة مع وجود ممرات ضيقة وصعبة العبور، مما يجعلها منطقة ذات أهمية استراتيجية في إطار العمليات العسكرية الاستعمارية كما يشير إلى أن القبائل مثل أولاد ساسي، أولاد سعد، وأولاد الخالد، تلجأ إلى هذه المناطق الوعرة لشن المقاومة، مستغلة الطبيعة الصعبة للمنطقة والتي توفر لها ملاذاً آمناً، قائلاً ما يلي: "لما تفر القبيلة نحو الجنوب من بوكحيل، لا يمكن السيطرة عليها بسهولة" (Pein, 1871, p. 395).

وتؤكد رسائل ثيودور كذلك على أهمية الموارد الطبيعية في المنطقة، لا سيما المياه والمراعي، التي تلعب دوراً حاسماً في تحركات القبائل ونجاح العمليات العسكرية الفرنسية، حيث يصف كيف أن القبائل التي تهجر إلى هذه المنطقة تواجه مخاطر العطش بسبب ندرة الماء، ويتضح من خلال الكاتب أن السيطرة على بوكحيل تعني فرض السيطرة على حركة القبائل الصحراوية ومنعها من التمرکز والتجمع. في المجمل، يصف بان بوكحيل كموقع حيوي وعقدة جغرافية ذات أهمية استراتيجية، حيث تتقاطع مصالح القوى الاستعمارية مع مقاومة القبائل، مما يجعلها مسرحاً للصراع المستمر الذي يتطلب منهجية عسكرية دقيقة وتخطيطاً محكماً للقضاء عليها (Pein, 1871, p. 395).

سادساً: تقييم الكتاب:

كتب المؤلف رسائل تفصيلية عن أهم ملاحظاته للمنطقة وسكانها في تلك الفترة، ووصف جبل بوكحيل وضواحيه كموقع أو منطقة تمثل المشهد الصحراوي والقبائل المستقرة في جنوب الجزائر. وقدم الضابط ثيودور وصفاً دقيقاً لمنطقة بوكحيل، التي يعتبرها نموذجاً مصغراً وممثلاً للبيئة الصحراوية، صورها ليس فقط كموقع جغرافي بل كمجتمع يعيش فيه السكان الذين استقروا في هذه المنطقة الصحراوية، مع التركيز على خصائصهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية كما يُبرز بان في ملاحظاته طبيعة الحياة اليومية للسكان، والعادات والتقاليد التي تميزهم، وكيف يتأقلمون مع البيئة الصحراوية القاسية من خلال أنماط معيشتهم المرتبطة بالزراعة والرعي والتجارة. يعكس وصفه للمنطقة التفاعل بين الإنسان والطبيعة في سياق بيئي قاسي ومتنوع، مما يجعل بوكحيل مثالاً حياً على التنوع الجغرافي والثقافي الذي يميز الجنوب الجزائري من خلال هذه الرؤية، يسعى بان إلى تقديم صورة شاملة ومفصلة للمنطقة وللسكان، تساعد القارئ الأوروبي في فهم الحياة في تلك المناطق النائية، مع إبراز التحديات التي تواجه السكان وطرق تعاملهم معها. ويرى بان أن جبل بوكحيل يشكل ملجأً مثالياً للقبائل المقاومة وكحصن طبيعي للمناضلين، خصوصاً أولاد سعد وأولاد نايل وأولاد خالد، يصف تضاريسه بأنها صعبة، غير ملائمة لحركة الفرسان الفرنسيين، مليئة بالأودية والمرتفعات التي تسمح بالاختباء والمراوغة، وهي منطقة قاحلة وجافة ومغطاة بالحلفاء، لكنها توفر حماية طبيعية. كما يعتبر جبل بوكحيل مسرح للعمليات العسكرية الفرنسية،

ومنطلق للعديد من حملاته العسكرية نحو بوكحيل، انطلاقاً من عين الريش، وتنظيم للغارات المفاجئة ضد الجزائريين ومقاومتهم يُقدّم بوكحيل كبوابة تفصل بين الهضاب العليا (منطقة بوسعادة، أولاد نايل) والجنوب الصحراوي (وادي الجدي، تقرت)، فالجبل نقطة عبور واستراتيجية مراقبة؛ من يسيطر عليه، يملك مدخل الصحراء.

استخدم بان بوكحيل كقاعدة لوجستية، فهو لما يتحدث عن عين الريش الواقعة على مقربة من بوكحيل، ويسمّيها مازحاً قرية البسكويات *Biscuit ville*، يصف كيف كانت تُستخدم للتزود بالماء والطعام، وانطلاق الحملات الاستعمارية نحو الجبل.

في ضوء ما تقدّم، يظهر جلياً أن تمثيل تيودور بان لجبل بوكحيل لا يقتصر على البعد الجغرافي أو الوصفي، بل ينخرط ضمن رؤية استعمارية شاملة تسعى إلى ربط المجال (جبل بوكحيل) بالمشروع الكولونيالي الفرنسي في الجنوب الجزائري. لقد قدّم بان هذا الجبل، من خلال مراسلاته، باعتباره فضاءً هامشياً بالنسبة للإدارة المركزية، لكنه بالغ الأهمية في نظر العسكريين الميدانيين. إن وصفه لبوكحيل كموقع صعب التضاريس، تعتصم فيه القبائل الصحراوية وتتشكل فيه شبكات المقاومة، يعكس تصوّراً للأرض كعدوٍّ محتمل، يجب فهم تضاريسه ومعرفته بدقة بغرض السيطرة عليه وبالتالي السيطرة على القبائل، من خلال الاستطلاع والمراقبة والتدخل والإخضاع. وبناءً عليه، يمكن القول إن تمثيل جبل بوكحيل في هذا الكتاب يعكس دينامية العلاقة بين الاستعمار والمجال، حيث تتحوّل الجغرافيا إلى أداة

للفهم من جهة، ولكن أيضاً إلى مساحة للهيمنة وإعادة التشكيل من جهة أخرى.

خاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الموضوع توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

يُولي ثيودور بان في كتابه اهتماماً خاصاً بجبل بوكحيل (Djebel Boukahil)، ويُقدّمه ضمن منظور جغرافي، عسكري، استعماري، باعتباره فضاءً معقداً واستراتيجياً.

إن كتاب الضابط الفرنسي لا يمكن اعتباره مجرد وثيقة أدبية أو مراسلات شخصية، بل هو نص استعماري وصفي للواقع الجزائري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لاسيما في فضاء الجنوب المهمّش والمقاوم، يُقدّم بان شهادة ميدانية تكشف عن ممارسات الإدارة الفرنسية والمقاومة المعلنة التي أبداهها السكان المحليون، فرسائله تمثل مصدراً مركزياً لإعادة قراءة الجنوب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية.

يقدم ثيودور بان في رسائله تصوراً مركباً لجبل بوكحيل، لا باعتباره مجرد تضاريس طبيعية، بل كمجال استراتيجي يمثل تحدياً عسكرياً وإدارياً للسلطة الاستعمارية الفرنسية، يظهر الجبل في خطابه "كقلعة طبيعية" تلجأ إليه القبائل الصحراوية المقاومة، لما يوفّره من تضاريس صعبة وأودية مخفية وبيئة مقاومة، كما يُبرز الكاتب الدور العسكري لهذا الجبل، كونه مسرحاً لغارات استعمارية ومعارك ميدانية بين الطرفين.

تكشف هذه الرسائل كيف تعامل الجيش الفرنسي مع بوكحيل لا كمجرد موقع جغرافي، بل كمساحة مقاومة رمزية تستوجب الحذر والمناورة، مما يفسّر لجوء ثيودور بان إلى استخدام وحدات خفيفة وسريعة، واستعمال الجبل كنقطة مراقبة، كما يتضح أن وصف بان للجبل يشمل أبعاداً نفسية ومعنوية، حيث يجعل من تجاوز بوكحيل نحو الجنوب تحرراً من التوتر، ودخولاً في فضاء الحياة اليومية والانفتاح.

يمثل كتاب الضابط الفرنسي ثيودور بان مصدراً ذا قيمة خاصة في حقل الدراسات التاريخية، خصوصاً فيما يتعلق بتاريخ الجنوب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، فالكتاب ليس مجرد تدوين لذكرات شخصية، بل وثيقة ميدانية تعكس بدقة وجهة نظر ضابط فرنسي عاش تفاصيل الحياة العسكرية والإدارية والقبلية في مناطق مثل توقرت، وادي ريغ، جبل بوكحيل، وبوسعادة... وتكمن أهمية هذا العمل في كونه يقدم شهادة مباشرة من داخل المؤسسة الاستعمارية، تبرز العلاقة المعقدة بين الجيش الفرنسي والقبائل المحلية، كما تكشف عن رؤية استعمارية للعالم الصحراوي.

يوفر الكتاب مادة غنية للباحثين في الأنثروبولوجيا التاريخية، حيث يحتوي على أوصاف دقيقة للعادات واللباس واللغة وأنظمة الري، كما يُعد مرجعاً مهماً لفهم منطق الهيمنة الاستعمارية خارج المدن الجزائرية الكبرى في البيئات القبلية والنائية.

يشكّل كتاب ثيودور بان وثيقة نادرة لفهم الجنوب الجزائري خلال حقبة الاستعمار، حيث يزاوج بين نظرة إعجاب بثقافة الصحراء،

وبين انتماء واضح لمشروع استعماري توسعي. وتبقى قيمة النص قائمة في قدرته على توثيق تفاصيل دقيقة، لكن من الضروري تحليله نقدياً لكشف ما يحمله من رموز الهيمنة والخطاب الكولونيالي. وبذلك، يمكن اعتبار جبل بوكحيل في خطاب بان مرآة للصراع بين الرغبة في السيطرة الاستعمارية وبين صلابة الجغرافيا والمجتمع القبلي، مما يجعل منه نموذجاً لتحليل العلاقة بين المكان والمقاومة في السياق الكولونيالي الفرنسي.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1-ARNAUD Antoine, (1862) «Exploration du Djebel Bou kahil», *Revue Africaine*, Bastide Librerie éditeur, Alger.
- 2-COTTEAU M., PÉRON P., & GAUTHIER G., (1883), *Échinides fossiles de l'Algérie : description des espèces déjà recueillies dans ce pays et considérations sur leur position stratigraphique*, MASSON, PARIS.
- 3-FONTAINE P., (1952), *Bou-Saada: Porte du desert*, Edition Dervy, Paris.
- 4-FRÉMONT L., (1892), *Histoire, BIOGRAPHIE, archaéologie, documents inédits, bibliographie, beaux-arts*, *Revue de Champagne et de Brie*, France.
- 5-LEVASSEUR Émile , (1874), *Géographie élémentaire pour l'Algérie a l'usage de l'enseignement primaire*, CH. DELAGRAVE, Paris.
- 6-PEIN Théodore, (1871), *Lettres familières sur l'Algérie un petit royaume arabe*, Tanera Librairie, France.
- 7-PÉRON Alphonse, (1890), *Description des Mollusques fossiles des terrains crétacés de la région sud des hauts-plateaux de la Tunisie recueillis en 1885 et 1886 par M. Philippe Thomas*, Imprimerie nationale, Paris.
- 8-ROLLAND Georges, (1888), *La colonisation française au Sahara: l'Oued Rir, le chemin de fer Biskra-Tougourt-Ouargla*, Association Francaise, Paris.

